السياقات المعرفية والرهانات الأيديولوجية للرؤى الصدامية للعالم: برنارد لويس نموذجا.

Cognitive contexts and ideological stakes of confrontational visions of the world: Bernard Lewis as a model

بوطرفة أيمن *

جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي.

boutarfa.aymen@univ-oeb.dz

عامر ايمان

جامعة 08 ماي 1945، قالمة.

ameur.imene@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/28 تاريخ القبول 2024/12/12 تاريخ النشر 2024/12/17

ملخص: تتقصد هذه الدراسة الى ابراز طبيعة العلاقات الدولية، التي أصبحت تحت تهديد الصدام والصراع المستمر بين قوى العالم، وهو ما نشهده اليوم من أزمات خانقة للمجتمعات، نتيجة الحروب والصراعات الدولية، وتفشي خطابات العنف والكراهية، في ظل هذه الظروف برزت عدة نظريات مفسرة لحركة التاريخ القائمة على التنازع، وهي نظريات تنطلق من منظور ونموذج تصوري قوامه أن الصراع يمثل أهم قوانين التاريخ، التي تحكم العلاقة بين الثقافات والمجتمعات المختلفة، مشكلة اطار أيديولوجي يحدد طبيعة هذا الصراع، المبني على أساس عرقي أو اجتماعي أو ديني، والثقافي الذي يفصل الأمم فيما بينها، في ظل تجاذبات نظرية الصدام الحضاري. هنا ينحو المفكر البريطاني برنارد لويس منحى جدلي في ابراز أسباب هذا الصراع العالمي، خاصة بين المنظومة الغربية

* المؤلف المراسل

والإسلامية وشؤون الشرق الأوسط، محددا أسباب هذا الصراع وسياقاته الابستيمولوجية ورهاناته، وتداعياته على العالم الإسلامي، كونه مستشرقا يحمل نظرة صدامية اتجاه العالم الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: صدام الحضارات؛ الايديولوجيا؛ فلسفة التاريخ؛ برنارد لويس ؛ صراعات دولية.

Abstract:

This study intends to clarify the nature of international relations, which have become under the threat of clashes and constant conflict between the powers of the world, which is what we are witnessing today in terms of stifling crises for societies, as a result of wars International conflicts, and the spread of speeches of violence and hatred. Under these circumstances, several theories have emerged to explain the existing movement of history. On the dispute, These are theories that start from a perspective and a conceptual model based on which the conflict represents the most important laws of history, which govern the relationship between different cultures and societies, forming an ideological framework that determines the nature of this conflict, which is built on an ethnic, social, or religious basis, and the cultural one that separates nations from each other, in light of tensions. The civilizational clash theory. So Bernard Lewis takes a dialectical approach in highlighting the causes of this global conflict. Especially between the Western and Islamic system and the affairs of the Middle East, he identified the causes of this conflict, its epistemological contexts and stakes, and its repercussions on the Islamic world, as he has a confrontational view towards the Islamic world.

key words: Clash of civilizations; Ideology; Philosophy of history; Bernard Lewis; International conflicts.

مقدّمة:

يعيش العالم منذ تشكل المجتمعات الإنسانية بعلاقاتها الاجتماعية والمدنية والسياسية، حالة صراع، وتتغير طبيعة هذا الصراع كونها صفة جذرية، لا يمكن أن يكون أي تجمع دونها، سواء في القبيلة أو في دولة واحدة وهو ما عبرت عنه الهروب الأهلية المؤسسة لمنطق النزاع والتنافر، ويبلغ الصراع ذروته حين يكون قائما بين العلاقات الدولية،

وهو ماجسدته الحروب منذ فجر التاريخ والحروب العالمية بأنواعها..وغيرها من حروب أسفكت فيها الدماء، وحروب أخرى تتأسس داخل حيز الحرب الباردة، أين انتقلت النزاعات من الإبادة الدموية الى التنافس الدولي والسياسي والاقتصادي، الذي تحركه عوامل كثيرة من بينها اختلاف الشعوب والثقافات واللغة وكذلك الديانة، ورغبة كل طرف في السيطرة على الآخر، وتهميشه وبالتالي ركوب موجة الريادة الدولية. اذن يعيش عالم اليوم جملة من الصراعات والكراهية والنفور من الآخر، فالدول التي لابد من أن يحكمها منطق التعايش وتقبل الآخر والتعاون والعناية والرعاية، صار يحكمها مبدأ الصدام والصراع، هذا المبدأ القديم قدم الانسان ذاته، لكنه تعزز وبرز الى الساحة الاجتماعية، اثر التغيرات التي فرضت نفسها على الانسان.

وازدادت الجاذبية للرؤى الصدامية عقب أحداث 11 سبتمبر 2001، وما نتج عن ذلك من استقطاب هوياتي جعل الساحة الفكرية والسياسية أشباح مخيال وسيطي يحكمه منطق الصراع بين الشرق والغرب، أوالاسلام والمسيحية.. وهو ما تبعه تصاعد خطابات الشحن السياسي والهوياتي اثر عودة مفاهيم الحرب العادلة ومحور الخير والشر الى ساحة الخطابات الاعلامية والسياسية، الأمر الذي قاد بدوره الى ظهور مفاهيم ومصطلحات جديدة من قبيل الاسلاموفوبيا، الحرب على الارهاب، الحرب الاستباقية، الحدود الدموية للاسلام، وغيرها... وقابل ذلك تصاعد العنف الجهادي على أرض الواقع ، الذي استلهم مرجعيته من الخطاب الديني، في حين تم مقابلته في الجانب الغربي بعديد من التدخلات العسكرية داخل المنطقة العربية، وهو الأمر الذي مثل منعطفا خطيرا غيَّر معالم المنطقة برمتها.

النزعات الدولية المختلفة، تجسد في رؤى صدامية وفلسفات للتاريخ مثلما هو الحال عند جون ميرشايمر(1947-...) أو ألكسندر دوغين(1962-...) أو غراهام أليسون(1940-...). لكن برزت بالخصوص رؤى صدامية تركز على الاستقطاب الحاصل بين العالم الإسلامي والغرب، كما تظهر عند منظرين ومفكرين من أمثال

صموئيل هنتنغتون s.p.huntington (1927-2008) والمفكر المغربي المهدي المنجرة(1933-2014)، وبالخصوص المفكر والمستشرق **برنارد لويس**-1916) **Bernard louis**(2018، الذي يعد بحق عرّاب هذه الرؤية الصدامية المنذرة بآلام العالم القادمة، خصوصا فيما يتعلق بتحليلاته الاستشرافية حول الصراع الحضاري بين الغرب والعالم الإسلامي.

وفي هذا السياق تعمل هذه الدراسة على معالجة الإشكالية التالية: ما هي أهم الرؤى الصدامية التي استشرفت الصراع الدولي المعاصر؟ ماهي محدداتها المعرفية، وما هي رهاناتها الايديولوجية؟ وما طبيعة الرؤية الصدامية بين الاسلام والغرب كما تحدث عنها برنارد لويس بالخصوص؟

ولهذا الموضوع أهمية بالغة، نظرا لأهميته وواقعيته في تشخيص الأحداث العالمية، ويمكن ابراز هذه الأهمية في النقاط التالية:

- ابراز طبيعة ومحددات الرؤى الصدامية، من خلال عرض أهم نظرياتها ونماذجها الفلسفية.

- عرض آثار هذه النظريات والرؤى، عبر معرفة امتداداتها وتأثيرها على الدوائر السياسية والفكرية، المرتبطة بتيارات سياسية مُعينة في قلب مركز النظام العالمي، أي القوى الفعلية التي تسير السياسات الدولية.

- تفصيل رؤية برنارد لويس لنظرية صدام الحضارات، والمسألة الشرق الأوسطية، باعتبارها النموذج الأشهر والأكثر تأثيرا. بداية من التشخيص التاريخي، الى الحلول التي يقترحها.

ولتحليل هذه الإشكالية البحثية قمنا بالاعتماد على **المنهج التحليلي النقدي**، الذي تفرضه طبيعة الموضوع الفلسفية، من خلال عرض الحجج وتحليلها ومن تم مقابلتها ببعض الرُؤى النقدية التي لابد منها في ميدان الفلسفة السياسية، والتي يحكمها منطق الجدل والتي تعتمد على التحليل الابستيمولوجي والفلسفي لنظرية الصدام الحضاري، كما

تجسدت فكرة **المنهج المقارن** والذي يضع الكثير من الأطروحات والنظريات في محل التقابل والتضاد.

1 –الرؤية الصدامية للعالم –نظريات واشكاليات:

ان تضارب المصالح القائمة بين الدول والحكومات على الصعيد الدولي، يُحركها بطبيعة الحال منطق التضارب والتنافر والسلطة، لأن كل طرف يرغب في السيطرة على الآخر، والسيادة عليه، وإعادة نشر فكرة جدلية العبد والسيد، بطبيعة الحال تتأسس هذه الأحداث انطلاقا من مبدأ الصدام والصراع بين الأمم والحضارات، أكثر من كونه صدام بين الشعوب، وان كانت هذه الأخيرة لا تكف عن الاقتتال والعنف والعنصرية. صحيح أن ما يمكن جمعه هنا على أساس أنه رؤى وتصورات صدامية عن العالم في فلسفة التاريخ، اذ أنها عبارة عن نظريات مختلفة ومتعددة الأبعاد والسياقات، تتعدد حججها وتصوراتها وخلفياتها وأهدافها ومناهجها، لكنها تشترك جميعا في تصور مفاده، وجود عالم ثقافي وسياسي مكون من مجموعة"هويات جمعية" متفرقة ومتصادمة مع بعضها البعض جزئيا أو كليا.

وتُشكل الرؤية الصدامية للعالم رؤية نسبية عن الهويات والأفكار والقيم، لأنها تعبر عن التعدد في الثقافات والهويات والديانات، لكن هذا التعدد لا يحيل الى التجانس، بقدر ما يحيل الى التصادم. فهي هكذا تشبه الى حد بعيد فكرة التصور الذري، للحالة البدائية عند البشر، والتي عبر عنها توماس هوبز thomas Hobbes(1588-1679)، كون الذرة تشير الى التعدد، الذي يحيل الى التنافر، وبالتالي تتشكل قضية فكرة أن الانسان ذئب لأخيه الانسان، فهو في صراع دائم مع بني جنسه.

ان ما يسمى صدام الحضارات، والذي يتماشى مع روح العصر، منذ نهاية الحرب الباردة، باعتباره أيديولوجية جديدة ستحل أمام الأيديولوجية الماركسية المنهكة والمتراجعة، لشرح حالة المجتمع، والتي أنتجت الاقتصاد كتفسير للظواهر الاجتماعية، عبر عدة مبررات كالمجتمع والقانون والأخلاق والدين، كذلك توفر نظرية صراع الحضارات

نفس المبررات من خلال تحليل العلاقات الدولية عبر عوامل تاريخية وثقافية وأخرى اجتماعية، تشكل جزءا من البنى الفوقية.[1] اذن تعمل فكرة الصدام الحضاري على البنى الفوقية للمجتمع، والتي تشبه الى حد ما تلك البنى الموجودة في الماركسية، والتي تركز على الثقافة والقانون والدين، في ابراز ميادين الصراع القائم في العالم، كون النظريتين قائمتين على فكرة أن الصراع هو المحرك الأساسي للتاريخ، والمسؤول عن صيرورته ولابد من قيامه ووجوده ليستمر التاريخ، وبالتالي ينطلق رواد نظرية الصراع الحضاري انطلاقا من هذه الفكرة، وأن الصراع هو منطق محتم على العالم.

ومن بين أشهر النظريات المفسرة لتضارب القوى العالمية ، نجد نظرية صدام الحضارات للمفكر الأمريكي هينتنغتون، الذي يذهب في نظريته هذه التي صدرت عام 1996، الى وجود تنافر بين الدول بعد الحرب الباردة بسبب الاختلاف الأيديولوجي، اذ "شخَّص هينتنغتون عصر الاضطرابات المرتبطة بالاختلافات الملحوظة الناشئة بين ثمانية أو تسعة مجالات رئيسية للحضارة، يحددها بسمات دينية وهوياتية"[2]، أي أن هذا الاضطراب في العلاقات الدولية وغياب التعاون والتكافل الدولي، يرجع لعدة أسباب متعلقة بالدرجة الأولى باختلاف الهوية واختلاف النمط المعيشي للحضارة، واختلاف الرؤى، في عدة جوانب لعل أبرزها الثقافية والدينية، بحيث تثير الجدال في تقبل بعضها البعض، وتقبل أفكارها وعقائدها وبالتالي ينتج الصراع والجدال فيما بينها. ومن جانب آخر يرادف هنتنغتون بين الثقافة والحضارة، ويربط الهوية الحضارية بالفكرة الدينية من جهة أخرى. فتقسيمه للحضارات يربط كل هوية حضارية بدين معين (الإسلام، المسيحية الغربية، الأرثوذوكسية، البوذية ...). حيث أن الطبيعة الدينية للهوية تشكل هنا جوهر الحضارة، وهو ما يفسر قدرة هذه الحضارات على الصمود عبر الزمن، بالرغم من تفكك وانهيار بعضها سياسيا.

تمثل الهوية الدينية الحضارية هوية صلبة، ومنظومة متكاملة ومتماسكة، وهي لا تتواجد بالتوازي مع هويات حضارية أخرى لها نفس الخصائص، والعلاقات بينهم علاقات

تنافس، خصوصا الهويات الحضارية التي تحمل جينات التوسع في تركيبتها. مما يعني أن عملية التلاقي مع الهويات الأخرى هي الصدام والصراع، خصوصا اذا ما حدث التداخل في مجال الصلاحيات والوجود والنفوذ. في هذا السياق يصل هنتنغتون إلى نتيجة أن الهوية الإسلامية والهوية الصينية تمثلان أصلب هذه الهويات، من حيث أن الأولى تتميز بطبيعة خطابها ذو المدى التوسعي الكوني الذي يهدف لاستقطاب من خارج منظومتها الى داخلها وبالتالي فإنها تعتبر هوية صدامية مع غيرها بامتياز، ذلك أنها تكون في بحث دائم عن فتوحات للتوسع ومجالات نفوذ جديدة. وهو الأمر الذي يقود الى التصادم مباشرة مع هوية الحضارة الغربية التي تحمل أيضا نفس خصائص التوسعية والكونية هذه، خصوصا وأنها اليوم تحمل مشعل ريادة ما يعرف بالنظام العالمي الجديد بأبعاده العالمية هو الآخر، والتي تمثل الولايات المتحدة الأمريكية العنصر الفعال فيه، الذي تمثله أطروحة نهاية التاريخ لفوكوياما.

وينطلق هنتنغتون من نقد الرؤى المتفائلة بحتمية انتصار الليبرالية والنموذج الغربي، بالخصوص طرح فرنسيس فوكوياما Fukuyama(1952-..) القائل بنهاية الثقافات والحضارات لصالح انتصار النموذج الأحادي، أي نموذج الحضارة الغربية مجسدا في النظام الليبرالي اجتماعيا والديمقراطي سياسيا والرأسمالي اقتصاديا. "لكن سرعان ما دحضت هذه الرؤى سواء من متخصصين في العلوم السياسية مثل جان ماري جيهينو (نهاية الديمقراطية 1993) وبنجمين باربر (الجهاد ضد ماك ورلد 1995) أو فيلسوف مثل جاك دريدا (أشباح ماركس 1993) أو صموئيل هنتنغتون"[3] اذن فأطروحة هينتنغتون الرئيسية تأتي رافضة لمقولة نهاية التاريخ القائلة بأن الليبرالية الديمقراطية هي غاية التطور التاريخي وقد انتصرت على سواها، وبأن العولمة ستكون تجسيد هادئا لهذا الانتصار، فلا حرب ولا صراعات سياسية كبرى فيها. أما بالنسبة للطرح الصدامي، فإنه يحمل عكس هذا التصور، فالتاريخ مقبل على أحد أكثر مراحله خطورة، عكس ما يحاول طرح النهاية أن يروّج له بطرحه التفاؤلي، الذي يسكت عن كثير من الأمور المهمة فيما ستعلق الهوية،

الثقافة والتاريخ، لأن هناك تنافس كبير بين عدة دول مع أمريكا، اذ يقول أن أن "النظام العالمي الجديد قائم على تعدد الحضارات والأقطاب، وهذا ما ستبرهن عليه الأحداث الواقعية"[4] وفعلا فقد كانت الأحداث التي شغلت العالم في بداية الألفية الراهنة مماثلة لرأي هنتنغتون، وخصوصا هجمات سبتمبر 2001، وما تبعها من تصاعد النشاط الجهادي، وكذا صعود الصين كقوة عالمية جديدة، إضافة الى عودة روسيا لممارسة دورها كقوة عالمية تعارض المصالح الغربية الأمريكية والأوروبية.

وبرزت نظرية أخرى في الساحة الفكرية، تتعلق دوما بالصدام الحضاري للأمم، وهي نظرية المفكر الأمريكي غراهام أليسونGraham Allison(1940-..) تحت اسم "فخ ثيوسيديدس"، وهو مفهوم أستلهمه غراهام اليسون من كتاب: "تاريخ الحرب البيلوبونيسية" للمؤرخ اليوناني ثيوسيديدس Thucydides، الذي جاء فيه أن السبب الحتمي لاندلاع حرب البيلوبونيز تتمثّل في أن تزايد قوة أثينا، التي غدت قوة متنامية قادرة على منافسة القوة القديمة في منطقة اسبرطة، اذ يقول في هذا الصدد :كان صعود أثينا والخوف الذي بثه ذلك الصعود في أسبرطة هو ما جعل الحرب بينهما حتمية.[5] حيث يُعتقد أنه غالبا ما تنتهي المنافسة بين القوة الصاعدة والقوة القائمة بالحرب. وهذا الأمر يشبه نوعا من القانون التاريخي الحتمي.

في كتاب **مأساة القوى الكبرى** يدافع "جون ميرشايمر" John Mearsheimer(1947- ...) عن فكرة أن توازن القوى هو المعيار الوحيد للنظام والسلام الدولي. خصوصا في نظام عالمي تتقاسم تسييره وتوجيهه قوى سياسية كبرى، ذلك أنه في حال اختلال هذا التوازن فإن الصراع والحروب المدمرة ستكون أمور لا فرار منها. وفي هذا السياق يحمل جون ميرشايمر الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الغرب مسؤولية اندلاع الحرب الروسية في اوكرانيا سنة 2022، حيث أن خطط ومساعي ضم اوكرانيا وجورجيا الى الحلف الناتو التي بدأت سنة 2008، اصطدمت بتزايد قوة ونفوذ

روسيا التي أصبحت نزعة واضحة لأن تكون قوة سياسية-عسكرية عالمية منذ بداية الألفية الحالية، وهو ما قاد الى حرب حتمية الوقوع.

وحتمية الصدام هذه هي جوهر الرؤية الصدامية المتشائمة لهذا الطرح. ذلك أنه حين تتجاهل الدول من حين لآخر العالم الفوضوي الذي تعمل فيه، وتختار بدلا من ذلك أن تتابع استراتيجيات تتناقض مع منطق توازن القوى[6]. فان الصدام قادم لا محالة. في حين يذهب المفكر الروسي ألكسندر دوغينDouguine (1962-..)المنظر لمفهوم الآوراسية Eurasianism في مقابل الأطلسية ، حيث ينظر دوغين لصراع قادم بين الشرق والغرب، الشرق ممثلا في الحلف الأوراسي بين روسيا وقوى آسيوية على رأسها الصين ضد المحور الغربي المتمثل في أمريكا وأوروبا الغربية وحلفائها، حيث يرى بأن جوهر الهوية الروسية جوهر ذو طبيعة توسعية، ليقف على طرفي النقيض مع طبيعة النظام العالمي الجديد الذي يتصور روسيا كمجرد دولة ذات دور ثانوي.

2-برنارد لويس: العلاقة الصدامية بين الإسلام والغرب:

يعتبر المؤرخ والمستشرق البريطاني الأصل برنارد لويس من أكثر المفكرين إثارة للجدل في العالم المعاصر، وذلك لما تثيره أفكاره من جدل واسع وردود أفعال متباينة، ويتجاوز تأثير أفكاره المجال الفكري المحض ليصل الى صُناع القرار في العالم الغربي، متوغلة في الدوائر السياسية الأكثر تأثيرا في النظام العالمي الجديد. ذلك أن رؤية برنارد لويس التاريخية تتوافق مع رؤيته السياسية والأيديولوجية حول علاقة الغرب بالإسلام، من حيث أنها رؤية استقطابية صدامية، نواتها تتمثل في الصراع الهوياتي والثقافي والسياسي في المنطقة الشرق أوسطية. وهي نفس المرجعية ونفس طبيعة الرؤية التي استلهم منها هنتغتون أطروحته المتداولة.[7] ويقول برنارد لويس بفكرة صراع المركز والأطراف، والصراع على المركز داخل الحضارة الإسلامية. وهي الفكرة نفسها التي استلهمها منه هنتنغتون في صياغة نظريته حول صدام الحضارات، كما يرى بأن الصراعات داخل الدول الاسلامية في المنطقة الشرق أوسطية تتقارب في خطورتها وتتجاوز الصراعات مع خارجها، فبالنسبة له

"قد لا تكون الحروب بين الدول الخطر الأكبر الذي يتهدد الشرق الأوسط بل الحروب داخل تلك الدول"[8] ويرى برنارد لويس أن الهوية الاسلامية هي هوية صلبة وأن النزعة الدينية غالبة فيها،فالإسلام حضارة وهو الهوية ويتميز بقوة معنى الولاء والإخلاص للعقيدة، والتي تعد القضية الأجدر بالتضحيات حتى وإن زال الإيمان[9]. اذ أن الهوية الإسلامية هي هوية تصادمية، لأن الآخر ينظر اليها بعين الاختلاف، اذ أن صعود الأصولية الإسلامية يمثّل احدى تجليات مكونات هذه الهوية، ومن ثم منطق الصدام.

ان طبيعة هذه النزعة الدينية التوسعية تجعلها في حقل صدام مباشر مع نظريتها الغربية، التي وإن تجاوزت صيغتها الدينية القديمة، فإن طبيعتها التوسعية الكونية تجعلها متصادمة مع نظيرتها الاسلامية. "فقد دخلت المسيحية في صراع مع الاسلام منذ القرن السابع، عبر البحر الأبيض المتوسط وفي أماكن أخرى من العالم، باعتبارهما ديانتين متعارضتين، برغم أن مساحة الخلاف بينهما أقل من التشابه"[10] كما أن العالم الإسلامي في صراع مع المسيحية، منذ القرون الوسطى الى اليوم، لأن الصراع لا يعود الى اختلافهما الجذري، بل الى تشابههما وتداخل مجاليهما، فهما إخوة أعداء، لأنهما حضارتان شقيقتان، فكلاهما يهتم بتراث الوحي والنبوة المشترك والفلسفة والعلم الاغريقيين، ويشتركان نوعا ما في تقاليد الشرق الأوسط القديمة[11]. لكن مع ذلك توجد فروق ظاهرة بينهما، فالمسيحية تفصل منذ البداية بين الديني والسياسي، كما أن ظهور مؤسسة الكنسية كمؤسسة سيادية لم يكن له أمر مماثل في السياق الاسلامي، الذي يربط منذ البداية بين السياسة والدين، حيث يرى بأن الإسلام ارتبط في عقول المسلمين وذاكرتهم منذ حياة مؤسسه وفي الكتب المقدسة بممارسة السلطة السياسية والعسكرية ... ولم يميز بين مؤسسات مستقلة ذات هرمية وقوانين خاصة بها لتنظيم المسائل الدينية.[12] اذ أن الدولة الإسلامية لاتعتمد الفصل بين مبادئ الدين ومبادئ الدولة مثل ما تفعل الدول العلمانية.

وبالنسبة للاستشراف بمستقبل الشرق الأوسط، فان لبرنارد لويس نظرة تشاؤمية على المستوى القريب، فالأوضاع آيلة للأسوء، والواقع لا يبشر بخير، بسبب استمرار صعود الأصوليات. اذ يرى في هذا خطر على النظام العالمي الجديد، فإذا ما تدخلت الصين وروسيا لدعم الدول ذات التوجه المعادي للنظام العالمي هذا فإن موازين القوى يمكن أن تختل، ويخرج الأمر عن سيطرة النظام العالمي[13].

يراهن برنارد لويس على عملية العلمنة والتحديث كسبيل لتجاوز الهويات الأصولية الهجومية حيث أن تركيا حسبه مثال يحتدى به لباقي الدول الإسلامية، وإذا ما حدث نفس ما حدث في تركيا فإن السلام في الشرق الأوسط سيصبح ممكنا، لكنه يستبعد هذا على الأقل في آفاق المستقبل القريب. ويرى بأن الخطر الحقيقي يكمن في الصراعات داخل الحضارة الاسلامية ذاتها، كون أعداء الشعوب الاسلامية ، لا تمثل خطرا بالنسبة لهم، وانما الخطر الكبير يكمن في العقلية الصراعية بين شعوب العالم الإسلامي فيما بينها[14] أي أن التخلف والتصدع الذي سيلحق بالعالم الإسلامي، سيكون من قبل المتمردين عن هوياتهم داخل العالم الإسلامي ذاته، أكثر من الأعداء الخارجيين. ومن الآليات التي يقترحها برنارد لويس لحل مشكل الصداع في المنطقة الشرق أوسطية هي آلية تفكيك الوحدات السياسية القائمة وإعادة رسم الخارطة السياسية للمنطقة بما يتلائم مع منطق حساب الهويات المتصادمة، وهذا الأمر بالذات هو ما أكسبه سمعة سيئة عند كثير من ناقديه، خصوصا أولئك الذين يدافعون في نقدهم له عن دولهم الوطنية والقُطرية.

باختصار، يمكن القول أن برنارد لويس ينطلق في تصوراته وأفكاره من رؤية الصدامية للعالم بامتياز، ومعرفته الواسعة بتاريخ المنطقة وتفصيلاته الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، جعلته قادرا على صياغة تصور نظري عن نظرية صدام الاسلام مع الغرب في منطقة الشرق الأوسط بخاصة، وفي العالم بعامة.

3-الرؤية الصدامية بين رهاناتها الإجرائية وسياقاتها النظرية:

صحيح أن الرؤية الصدامية قد تكون رؤية تبريرية لكل أنواع الحروب عبر التاريخ، فمن الحرب المقدسة الى الحرب العادلة مرورا بالحرب الاستباقية، وتضل مختلف تسميات هذه السياسات العدائية تجسيدا لرؤية صدامية ترى في الآخر عدوا لا بد من ردعه، كما أنها تؤسس لتصورات عن حتمية الحرب مثلما هو الحال مع فخ ثيوسيديدس أو مع مفهوم الحدود الدموية للاسلام. لكن مع ذلك فان هذه الرؤى الصدامية يبقى لها ما يبرر وجودها معرفيا. حيث تتجلى قيمتها المعرفية في استشرافاتها الناجحة، ذلك أن كثير من النظريات الصدامية تجلّت كأنها تنبؤات سبقت زمانها بامتياز. فالرؤى الصدامية تقدم نفسها هكذا على أنها احد أهم مقاربات فلسفة التاريخ، وأكثرها ارتباطا بالتاريخ الواقعي.

ومع ذلك وجب فصل النظرية عن التطبيق السياسي، فالسياسي غالبا لا يسير وفق نظرية محددة، بقدر ما يسير وفق عدة عوامل ومحددات، لربما كانت النظريات الفكرية إحداها. هنا يمكن الاستشهاد بالكثير من الأطروحات التي تبين أن التخطيط لا يتم عبر شخص بالنسبة للقرارات الكبرى سواء الأمريكية أو الأوروبية، وأن الحروب بطبيعة الحال لا تقوم على اقتراح من شخص، وأن الهجمات لا تستند على كتاب يؤلفه فرد.[15] ويرى من جهة أخرى المستشرق الفرنسي أوليفييه روا olivier roy بأن أي رؤية حول صدام الحضارات هي رؤية غير مجدية لأنها قاصرة عن فهم الواقع الثقافي[16]. ذلك أن الرؤية الصدامية أو حتى تلك التي تقول بنقيضها أي حوار الحضارات في رؤى تهمل تداخل المرحلة التاريخية الراهنة في طبيعة الهوية الجمعية، فالهويات الجماعية في عالم تسوده ثقافة العولمة، لم تعد هويات صلبة في ذاتها بقدر ما أصبحت الهوية في حد ذاتها تحمل داخلها عدة هويات أخرى.

كما تطرح المقاربة الصدامية مفارقة مهمة، فإذا كان الطرح الصدامي يقول بالتعددية الثقافية والحضارية، فان هنتنغتون ومن قبله برنارد لويس ومن سار سيرهم، يقولون بهذه

التعددية انطلاقا من رفض القول بطروح حتمية انتصار الغرب، حيث يدعون الغرب للتأهب الدائم والاستعداد المستمر لمواجهة أعداء قادمين ومتحفزين. فالهدف من تنظيراتهم هو المحافظة على هيمنة النموذج الحضاري-الثقافي الغربي. وهذا ما جعل محمد عابد الجابري يرى بأن "الأهمية الحقيقية للمقاربة الصدامية تكمن في الوظيفة التي تؤديها"[17] فنظرية صدام الحضارات هنا تظهر على أنها ليست دعوى لنقد المركزية الغربية، بقدر ما هي إنذار ودعوة مراكز القرار في الدول الغربية الكبرى للبقاء على أهبة الاستعداد لحماية هذا التفوق الغربي، ومجابهة أعداءه. هذا ما يعني أن التنوع الحضاري هو ما يمثل خطرا قائما في حد ذاته، بحيث أن الهويات المتصادمة تهدد بحدوث صدام عالمي إذا ما توفرت الظروف المناسبة لذلك. وصحيح أن العولمة تجسّد الكونية لكنها لا تبدو إمبريالية، فقد انتهى عصر الامبراطوريات، وسوف يتعين ايجاد طرق جديدة لتنظيم هذا العالم[18]. مع ذلك فلا يتوقع من العولمة أن تنهي حالة الصدام والتشنج، لأن أحداث الراهن تنذر بحروب دائمة، وهو ما يجعل من النظام العالمي يقف على هاوية الصدام الدائم.

خاتمة:

بعد عرض أهم الأفكار التي جاءت في النظريات والرؤى الصدامية، يمكن أن استنتاج ما يلي كحوصلة عامة:

لم تكن نهاية القرن العشرين وما تبعها من أحداث أهمها نهاية مرحلة الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي الليبرالي والشرقي الاشتراكي بانتصار الأول إلا إعلان ببداية مرحلة تاريخية جديدة، مرحلة اختلف في تسميتها لما تحمله طبيعتها من تغير وعدم وضوح، فسمّيت تارة بالعولمة وتارة أخرى بالنظام أحادي القطب، وأيضا أطلق عليها النظام العالمي الجديد، اذ عادت الصدامات السياسية وما يتبعها من حروب وتشنجات هوياتية وثقافية وفكرية الى الساحة العالمية معلنة عن تشكل منطق صدام الحضارات، وصدام الثقافات والهويات، مشكلة علاقة ضدية وصدامية بين الأنا بالآخر.

وفي هذا السياق ظهرت الرؤى الصدامية ونظريات صدام الحضارات، حيث عبر عنها في المدى العربي "المهدي المنجرة"، وفي المدى الغربي ثلة من المفكرين الأمريكيين على رأسهم "صموئيل هنتنغتون" صاحب نظرية "صدام الحضارات" و"غراهام أليسون" صاحب فكرة "فخ ثيوسيديس"، وجون ميرشايمر وحديثه عن سياسة القوى الكبرى، والروسي ألكسندر دوغين منظر الأوراسية والجيوبوليتيكا. بدون نسيان الحديث عن أشهر منظري الصدام برنارد لويس، وتحليله لمكامن العلاقة الصدامية بين الدول والثقافات المختلفة، وخاصة علاقة الإسلام بالغرب، والنزاعات السياسية، والأزمة الشرق أوسطية، والسياسات الغربية وتداخلاتها في المنطقة العربية، وظهور الحركات الجهادية ومفاهيم الحرب الاستباقية والحرب على الإرهاب وغيرها، وهو ما يستدعي الكثير من التنبه لتحري الموضوعية في التعامل مع افكاره، لتقييمها في محاولة لانتهاج منهج الفصل بين المعرفي والايديولوجي. وهذا المنهج والمنحى لا ينطبق على برنارد لويس فقط، بل على كل الرؤى الصدامية التي يختلط فيها الأيديولوجي مع المعرفي، ولو أن المهمة ليست بتلك البساطة ولا بذلك الوضوح، فالأمر يبدو مستعصيا خصوصا لو أُخذ في الاعتبار المجال الفكري الذي يتداخل فيه الديني مع السياسي والتاريخي. مع ذلك فإن دراسة الرؤى الصدامية عموما في سياقاتها الابستيمولوجية والمعرفية تبدو المنهج الوحيد الذي يسمح بفصلها عن حمولتها الإيديولوجية وتقييمها موضوعيا، بما يسمح بالاستفادة منها في ما وراء الجدل الكبير الذي تخلقه وتثيرها مقولاتها هنا وهناك.

الهوامش:

L..p lacoste, le choc des civilisations, jean jaures, France , 2009, page6[1]

Ibid, page 12[2]

[3] كريستيان دولاكامباني، الفلسفة السياسية اليوم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2003، ص 17

S.hunington, le choc des civilasions, odile jcobe, paris, 1997, page 357[4]

[5] غراهام أليسون، حتمية الحرب بين القوة الصاعدة والقوة المهيمنة، دار الكتاب العربي، بيروت، 2018، ص19

[6] جون ميرشايمر، مأساة سياسة القوى العظمى، النشر العلمي والمطابع، الرياض، 2012، ص 502

[7] برنارد لويس، الإسلام في التاريخ، الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط، آفاق للنشر، القاهرة، 2018، ص 564

[8] برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، شركة رياض الريس للكتب والنشر، الرياض، 2000، ص 71

[9] برنارد لويس، الإسلام في التاريخ، الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص566

[10] المصدر نفسه، ص 565

[11] برنارد لويس، أزمة الإسلام: الحرب الأقدس والإرهاب المدنس، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، 2013، ص45

[12] المصدر نفسه، ص 54

[13] برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص 132

[14] برنارد لويس، الإسلام في التاريخ، الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص 567

[15] فهد سليمان الشقيران. (3 11, 2012). الاضطراب السياسي وأسطورة برنارد لويس. تم الاسترداد من جريدة الشرق الاوسط: https://aawsat.com

[16] أوليفيي روا، الجهل المقدس، دار الساقي، بيروت، 2012، ص 20

[17] محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997،ص 84

[18] اريك هوبزوام، العولمة والديمقراطية والإرهاب، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2009، ص 72